

التزعة العلمية
ومعقباتها الفلسفية

obeykandi.com

المنزعة العلمية ومقباتها الفلسفية

كان لتقدم العلوم الوضعية وبخاصة العلوم الطبيعية القائمة على المشاهدة والتجربة أعظم الأثر في نشأة الوضعية كما تبيننا ذلك في الفصل السابق . بل لقد ذهب كثير من المفكرين إلى الاعتقاد بأنه من المستطاع تخطي النتائج التي توصلت إليها الوضعية نفسها ، وقد كان يعزز نظرة هؤلاء مابدا في نظريات التطور عند « لا مارك » *Lamarck* « وداروين » *Darwin* من نتائج أحدث انقلاباً خطيراً في تفهم الظواهر وتفسيرها . أضف إلى ذلك ما حققه مذهب تداعي المعاني *association of Ideas* في علم النفس . فانجبه الكثيرون إلى نظرية علمية خالصة تتوخى أن تشمل في نظرة واحدة العالم والبشرية بأسرها . هذا ما يمكن لنا أن ندعوه بالمنزعة العلمية *scientisme* . ولا ريب أننا لو أنعمنا النظر لتبيننا ثمة فارقاً بين الوضعية *Positivisme* والمنزعة العلمية الخالصة *scientisme* . فهما يتفقان معاً على نقطة واحدة وهي أن كل ما في العلم سواء أكان علماً نفسياً أو اجتماعياً أو طبيعياً فهو يخضع للحتمية *déterminisme* على إطلاقها ، ولا يمكن من ثمة أن يتولد شيء ما إلا بمقتضى قوانين عامة ثابتة . ومن هنا لا يمكن أن يؤمن أصحاب المذهب العلمي وأصحاب المذهب الوضعي بإمكان قيام معجزة مثلاً . ويترتب على ذلك إنكار للحرية أوحى للإمكانية ؛ فظهور بعض العلل يستلزم حتماً ، ودون ما تخلف ، ظهور بعض المعلولات . وهنا ينتهي الاتفاق بين المذهبين . فالوضعي لا يذهب فحسب إلى أننا لا نعرف سر الأصل الأول للعالم والمصائر التي تنتظره ، بل إن هذا السر نفسه مغلق علينا ليس لنا إليه من سبيل . وعلى ذلك فكل بحث يتناول هذا الموضوع فهو لغو فارغ . وينبني على ذلك ما ذهبت إليه الوضعية من

استحالة الميتافيزيقا . فهي لا تعدو أن تكون خرافة ينبغي أن نحذر من الوقوع في حبالها .

أما أصحاب المذهب العلمى فحين يقتنعون بصحة فرض ما، سواء أكان هذا الفرض خاصاً بالسّم أو بالقوة أو بالمادة ، أو بعبارة أخرى إذا كان الفرض يتصل بطاقة معينة *énergie* ، ففي وسع الإنسان أن يفسر على ضوءه جميع ظواهر السكون من فلكية وطبيعية وكيميائية وبيولوجية ونفسية واجتماعية ، تفسيراً عقلياً ، ومع ذلك فأصحاب المذهب العلمى لا يؤمنون بعناية إلهية *Providence* . فالعالم قوة متدفقة تمضى في تيار من التطور المادى ، ولا تستهدف هدفاً معيناً (١) .

تصور كهذا ينطوى على مادية خالصة ، هو تصور آلى ميكانيكى يخضع ظواهر الطبيعة للحساب والتقدير . ومن ثم نجد أننا يمكننا أن نجتمع تفسير الأشياء في مجموعة من المعادلات الرياضية . وكلما ألفنا أن نفكر في الظواهر تفكيراً رياضياً كان منهجنا منهجاً سليماً . ومن هنا تحمس أصحاب هذا المذهب وأتباعهم للتصورات الذرية للكيمياء . وترجع هذه التصورات ما يقوم بين الأجسام من تجمع وتفرق وتآلف وتنافر ، إلى حركة الذرات وانتقال الجزيئات *molécules* . ومن هنا كان الحماس أيضاً للتصورات المتصلة بحركة الجزيئات في الطبيعة ، لأنها ترد الحرارة والضوء والصوت وجميع قوى السكون إلى ذبذبات وتموجات يمكن أن نعرفها بحساب دقيق

(١) أدرجم الى ص ٧٤ - ٧٥ من .

H. Wildan Corr : *The scientific approach to philosophy.*
(London 1924).

وبمعادلات مضبوطة. ومن هنا كان كذلك ذلك الحماس الشديد للنظريات التطورية لأنها تفسر تكوين الأنواع بطريقة آلية تتحكم في التغيرات التي تطرأ على الأفراد. مثل هذه التغيرات إذا كانت ناجمة عن حركة موفقة ناجحة أدت إلى سعادة أصحابها وإذا كانت على عكس هذا جرت عليهم الشقاء. وينجم عن هذا التصور حتماً سيادة مبدأ «البقاء للأصلح». ومن هنا كان الحماس للنظريات النفسية من قبيل نظريات «تين» *Taine* و«سبنسر» *Spencer*، تلك التي تذهب إلى تصور إحساساتنا المختلفة تصوراً آلياً باعتبارها مركبات من وحدات من الإحساس تنتج الإحساسات المختلفة التي تتميز من وجهة الكيف وإحساسات أخرى تخرج منها تصوراتنا المجردة، ومن هنا كان أيضاً ذلك الحماس للنظريات الاجتماعية ونظريات الأجناس التي تدعونا إلى أن نرى كما رأى «تين» *Taine* آثار الوراثة والبيئة في الأفراد والجماعات البشرية بحيث أن كل ما يحدث في الأفراد والجماعات فهو ثمرة عوامل ثلاث :

١ - الجنس . ب - البيئة . ج - ملابسات اللحظة الحاضرة .

هذه النظريات جميعاً بدت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر نظريات قوية راسخة، حتى أنها حفزت همم الباحثين إلى إتخاذ منهج التحليل في كل دراسة يشروعون فيها، فأخذوا يحللون كل مركب إلى أبسط أجزائه وتراآى لهم أن هذا المركب إن هو إلا بنيان مؤلف من هذه العناصر، وبدا لهم أن أعظم منهج يجب أن يتبع للوصول إلى المعرفة هو المنهج الذي يعتمد على العمليتين الرئيسيتين :

ا - التحليل *analyse* و - ب - التركيب *synthèse* .

أما فيما يختص بالأفكار والمعتقدات الدينية بالمعنى التقليدي أعنى ما يتصل بالعناية الإلهية وخلود النفس وحرية الفعل سواء أكان هذا الفعل خيراً أم شراً ، ومسئولية الإنسان أمام نفسه وأمام الغير وأمام ربه ، فلم يعد لمثل هذه الأفكار وما على غرارها شأن يذكر في مجال هذه النظريات الجديدة ، بل لم يتورع الكثيرون عن الجهر بأنها لا تعدو أن تكون أفكاراً خالية من المضمون ضعيفة فارغة لا معنى لها .

بيد أن موقفاً مادياً إلحادياً كهذا الموقف لا يمكن أن يروج بين الناس جميعاً وأن يحوز رضى المفكرين بأسرهم مهما بلغت عظمة النصر الذى انعقد للوضعية وتحقق للمذهب العلمى ؛ فقد بدأ كثير من المفكرين يؤلبون معارضة عنيفة ضد هذا التيار المادى الإلحادى المتمثل فى هذين المذهبين. وتجلّت هذه المعارضة فى اتجاهات ثلاث تختلف فيما بينها ؛ تلك هى : ١ - المدرسة الروحية *Ecole Spiritualiste* و ٢ - مدرسة النقديين الجدد والبراجماتيين *Ecole Néo-Criticiste et pragmatiste* و ٣ - المدرسة المثالية *Ecole Idéaliste* .

١ - أما أنصار المدرسة الروحية فيسلبون بالطبع بما بلغه العلم من تقدم ، ويوافقون على أن فى مقدور العلماء أن يصلوا بمناهجهم العلمية عن طريق الملاحظة والتجربة والاستقراء إلى استكشاف طبيعة الظواهر الطبيعية والوصول إلى القوانين التى تتحكم فى العالم المادى . فنظرياتهم عن الذرات والجزيئات وتكوين النجوم وتطور الأرض نظريات

سليمة تستند ولا ريب إلى دعائم علمية قوية ولا اعتراض لأحد بالتالي عليها .
بيد أن ثمة مسائل لا سبيل لأصحاب المذهب العلمى أن يوضحوا طبيعتها توضيحاً
مقنعاً . من قبيل ذلك أنهم يقفون عاجزين إذا ما سئلوا عن مصدر المادة
ومنبع القوة ، ومن أين تأتي هذه الكائنات الحية التى تعمُر الأرض ، ثم
كيف يمكننا أن نرد التفكير ، حتى فى أبسط صورته ، إلى مجرد إنتقال ذرات
وحركة حزيئات يتألف منها المخ ؟ كيف يسوّّل أصحاب المذهب العلمى
لأنفسهم أن ينتزعوا فى غير ما حَرَج هذه الحرية التى تنطوى عليها جوانحنا
والتي تتمثل لنا تصوراً حياً فعلاً لا يشترك فيه أفراد الجنس البشرى جميعاً .
هذه الحرية التى يعتز بها كل انسان والتي بدونها لا يكون هنالك مسؤولية
ولا تقدير ولا قيمة من القيم ؟

يرى أنصار المذهب الروحى أننا يستحيل علينا تفسير العالم تفسيراً
مفهوماً معقولاً مالم نعتمد على أفكار ثلاث جوهرية هى :

أ - العناية الإلهية : فهناك خالق مدبر للسكون فاطر للمخلوقات .

ب - النفس اللامادية : وهى مبدأ الفكر ومنبع الاختيار .

ج - الحرية الإنسانية التى تسمو على كل حتمية . هذه الأفكار

الثلاثة أفكار روحية يمكن البرهنة عليها برهنة عقلية كما يرى أنصار
المذهب الروحى .

٢ - أما النقاد فيرون أن المكان *l'espace* والزمان *le temps*

صورتان بسيطتان للإحساس الإنساني ، فكيف إذن يصح التسليم بصدق فلسفة لا قوام لها إلا على أساس اعتبار المكان والزمان حقيقتين ميتافيزيقيتين ، وعلى أن هنالك عدداً لا متناهياً من الجزيئات لا يمكن أن تنتقل أو يكون لها وجود إذا كان الزمان والمكان لا يوجدان إلا ظاهراً ؟ إن محاولة فهم العقل في نظرية كهذه تبدو محاولة عسيرة شاقة ، هي بمثابة « وضع العربدة أمام الجياد » كما يقول المثل الشائع . فبدون العقل ان يكون هنالك وجود لزمان أو مكان ، ومن ثم ينقطع السبيل على مذهب العلميين في تفسير الأشياء . كذلك لا يحوز التسليم بحتمية كلية مطلقة إذ ليس ثمة دليل على ذلك . فما أكثر الظواهر التي نجهلها إذا قيست بتلك التي نعلمها والتي يظهرنا على طبيعتها ما بذاناه من بحث وجهد . ثم ذلك الشعور الذي هو حقيقة واقعة فينا ، أعني شعور الحرية والاختيار ، أليس من العجالة والتهور أن نهمله وننكر التسليم به ؟ أما البرهنة برهنة أولية *a priori* على حقيقة الحتمية الكلية فهي برهنة مستحيلة ما لم نضع لها مسلمات تستلزم بدورها البرهنة كذلك . خلاصة القول في موقف النقيدين المحدثين هو أنهم يرون أن الزمان والمكان ليسا شيئاً مادياً واقعياً تنتقل فيهما بالحركة ذرات وجزيئات كما يذهب إلى ذلك أصحاب المذهب العلمي ، وإنما الزمان والمكان مقولتان عقليتان لا بد منهما لكي تتم المعرفة ^(١) .

(١) يستند النقيديون - الجسد في ذلك على فلسفة « كانت » والفلسفة النقدية عند « كانت » تقوم على أساس دراسة العقل البشري « فكانت » يضم مشكلة إمكان المعرفة وكيف يمكن أن تكون التجربة ممكنة ، ويستلزم هذا البحث في الشروط التي لا بد من توافرها لكي تتم التجربة . انظر المذهب النقدي عند « كانت » ص ٨٧ - ٩٥ من هذا الكتاب .

والبراجمطيون يرون أن المشاكل الميتافيزيقية لا يتيسر حلها حلاً علمياً، ومن ثم ينبغي نقل حدودها ومحاولة دراستها في النطاق العملي أو البراجمطى . فإذا لم يتيسر لنا معرفة ما هو حقيقى فمن الحكمة أن نتساءل ماذا يجب علينا أن نعتقد ؟ ومن الحكمة كذلك أن نلتمس الإجابة على سؤالنا هذا لا بطريقة المنهج العلمى بل فى صميم حاجتنا الحيوية . فنتساءل : ماهى المعتقدات التى تعيننا على أن نعيش وما هى تلك التى تزودنا بالأمل ؟ .

فالنقديون المحدثون والبراجمطيون، على ما بينهما من خلاف، يجمعون على أننا لا ينبغي أن تبهرنا قضايا أصحاب المذهب العلمى . فهو لا أنفسمهم ليسوا على يقين تام وثقة بما يقولون . بل ينبغي لنا أن نعقد العزم على أن نعتقد فيما تؤكد لنا إنسانيتنا وأن نؤمن بالواجب والحرية .

٣ — والمثاليون : يأبون أن يذشدوا قيمة ميتافيزيقية لنظرية كنظرية « كانت » فى الزمان والمكان وأن يسلّموا بما سلّم أصحاب المذهب العلمى من أن المكان والزمان عبارة عن حركة بين الذرات والجزيئات التى يتألف منها الواقع المادى .

يرى المثاليون أن الانحصر فى هذا النطاق المادى يجعلنا نغفل حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، حقيقة أسمى من المادة تلك هى الوجدان أو الشعور *Conscience* . فالوجدان فى نظر المثاليين هو الشخص ذاته، وليس هناك من قيمة للزمان أو المكان إلا بمقدار فهم هذا الوجدان لهما . فالمكان والزمان إذن ليسا ماديين مادية بحتة كما يذهب العلميون إذ يرون أن الزمان هو الحركة التى تقع فى المكان ، وليس كذلك مدلولين عقليين أوليين كما ذهب أصحاب المذهب النقدى؛ بل هما ثمرة وجدان الفرد .

فالمثاليون يهاجمون الماديين ولكنهم يختلفون عن الروحانيين وعن
النقديين فالإنسان في نظرهم وجدان قبل أن يكون جسماً . فهم لا يسرفون
في المادة ولا يغالون في الاتجاه العقلي ، بل يلتمسون الحقيقة في الوجدان .
والوجدان هو لب الشخص ، هو تلقائية خالصة *Pure Spontanéité* . فحيوية
الإنسان تتمثل في هذه التلقائية التي تميزه عن أي كائن آخر وعن أي عنصر
من العناصر المادية . ومن هذه التلقائية الخالصة تتدفق حرية الإنسان .